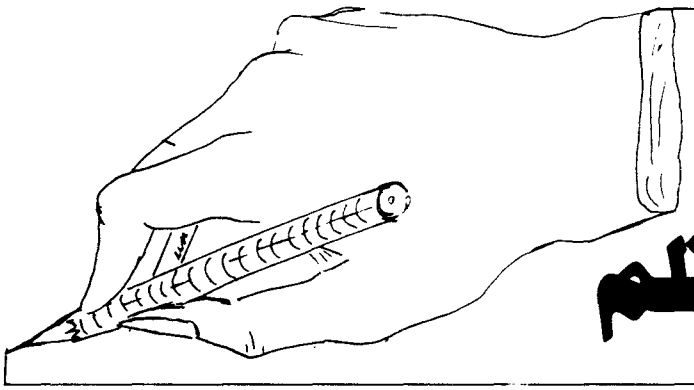

حنا مينة

كيف حملت القلم

(١)

في بلدنا، إسكندرونة، وفي حي «المستنقع» الذي طالما كتبت عنه، كانت عقدة النقص من الكتابة والقراءة قاسمًا مشتركاً بين جميع سكانه. لم يكن، في الحي كله، من يضع سواداً على بياض، والوحيد الذي يقرأ، كان يدعى أبا رزوق، وهو عجوز غريب، له عينان مراوغتان، كعيني الثعلب، وألواح عريضة، لا تتناسب مع جذعه، وفي رأسه كرة لحمية، هي درنة شحمية، أو كدمة يحتبس فيها دم تكلس، لم يعرف أحد سببها، وإن كان بعضهم من أصحاب الألسنة الطويلة، قد زعم أنها من أثر ضربة تلقاها يوماً من زوجته ميلو، أو من أية امرأة جريئة ضاقت ذرعاً باستغاباته للناس، وخاصة النساء. المهم أن أبا رزوق لم يكن موسوساً صحياً، وهذه خاصة يشترك فيها الجميع، في حيّنا الذي لا يعرف الطبابة فمن المرض إلى الشفاء بقوة المقاومة، أو الموت، لهذا لم يعرض نفسه على طبيب، ولا فكر بإزالة النتوء اللحمي، البرتقالي الشكل، من طرف جمجمته، وبذلك كانت له أسوة بالآخرين الذين يموتون لأن الموت «كأس على كل الناس» كما يقولون، وليس من يعرف سببه، فلا الطب البشري ولا الطب البيطري كانت لهما علاقة «بالمستنقع» في العشرينات من هذا القرن.

وكان أبو رزوق يقرأ مجراوية الزير سالم فقط، وهو لا يقرأها لأنه حفظها، ومافتح الكتاب إلا من قبيل يقظة عقدة الأمية، وعندما مات في اللاذقية عام ١٩٤١، بعد هجرته إليها من اللواء، طلبت المجراوية من زوجته ميلو، بدفع من والدي، فرفضت قائلة: «هذه من ذكرى المرحوم، وسأحتفظ بها كل حياتي». ذلك أن المجراوية، ذات الدفة السوداء، المهترئة، المتسخة، هي كل تركة المرحوم، وكان يصرها بمنديل، ويعتني بها عناية بالغة، كما يعتني بنظارتين خربتين، عثر عليهما في مزبلة الخنازير العامة التي كان أهل الحي ينبشون فيها، علهم يجدون في مهملات المدينة ما ينفع أو يباع.

وكان أبو رزوق يعرف قيمة نفسه تماماً. فهو لا يذهب إلى سهرة دون أن يدعى رسمياً. ولا يقرأ إذا لم يكن المستعمون على مزاجه. وقد يغلق المجراوية ويضرب عن القراءة إذا تكلم أحد. وكانت شروطه هذه معروفة، وليس من السهل الإخلال بواحد منها، على أني، بعد أن صرت في الصف الرابع ابتدائي، وحصلت على تغريبة بني هلال، حدثت لأبي رزوق فضيحة كبيرة على يدي، حين أصر والدي، في إحدى السهرات، أن يقرأ لهم أبو رزوق التغريبة، فتبين أنه لا يقرأ، كما كان قد تبين من قبل أنه لا يكتب، وأن ما يتلوه، وهو يفتح المجراوية، هو ترداد لأبياتها، وأن النظارات لا تقدم ولا تؤخر، وقد اصطنعها ليخدع الآخرين، وليؤكد أنه يقرأ في المجراوية.

إن عقدة النقص هذه، ستتبدى، عند شباب الحي خاصة، بأشكال مختلفة، منها الحرص على تعلم حزورات حسابية، وإمساك جريدة قديمة في اليد خلال عطلة الأسبوع، أو وضع عدة أقلام في «سيلة» جيب السترة (أي الجيب العلوي عند الصدر) وهي أقلام خشبية كانوا يحرصون على بريها بسكين حادة، ولكل قلم شكلة نحاسية تثبته في الجيب، ومن وراء الأقلام منديل مخرم الأطراف.

وحين قرأت، في المدرسة الابتدائية، في جريدة قديمة، عبارة «حملة الأقلام»، انصرف ذهني فوراً إلى شباب حينا، هؤلاء الذين كانوا يحملون الأقلام للزينة، فيصيرون حميراً على ظهورها برادع مطعمة بالفضة، والغريب أنني، أنا الأحسن حالاً من ناحية فك الحرف، تحمرنت أيضاً، وأغرمت بحمل الأقلام، فاضطر والدي، إكراماً لوحيده، أن يشتري بضعة أقلام، وينفق ليلة كاملة في بريها، دون أن نفطن إلى أنني ألبس فستاناً، ولا جيب سترة لي أشكلها فيها، الأمر الذي قهرني وأبكاني طويلاً، حتى اهتدت أمي إلى مخرج، وهو أن أشكلها بجيب فستاني، وهكذا كان.

الآن وقد كبرت حتى بلغت مرحلة الكهولة، صارت لي عقدة نقص أخرى، مناقضة، فصرت لا أحمل أيما قلم، وخاصة

في الجيب العلوي الخارجي لسترتي، وأخفي عن زوجتي السبب الحقيقي لعزوفي عن حمل الأقلام، مكتفياً بالابتسام، إشفاقاً على نفسي وعلى أهل الحي الذي خرجت منه، لأنني فهمت وفي وقت متأخر مع الأسف، أن عبارة «حملة الأقلام» لا علاقة لها برجال حي المستنقع، ولا بأشباههم في الأحياء الأخرى.

وبعد أن مرت الأيام، وصرت حامل قلم، بالرغم عني، أصبح للعبارة وقع مهيب في نفسي، تحمل صفة اجتماعية، فكرية، أدبية، محاطة بهالة من التقديس والتكريم، تولدت في المؤتمرات، وفي المناسبات الخاصة، حيث يتفضل رجال السلطة، وهم يتوجهون إلينا، نحن الأدباء، في حفلات الافتتاح، بالتحية، يشيدون بنا قائلين: «أنتم حملة الأقلام»، عندئذٍ تأخذني عزة الغرور، فأنظر في صدور زملائي، لأرى الأقلام التي يحملونها أوسمة، لكنني قلما أجد في سيلانهم أقلاماً، لأنهم، كما فعلت أنا، قد وقعوا في فخ التواضع، فصارت كثرة الأقلام عقدة بالنسبة إليهم، لذلك يخفونها تأدباً، ويستبدلون بالذهبي منها أقلام الحبر الجاف، فهي أخف في الحمل، وأرخص في الثمن، وأسرع تلبية في تدبيج المقالات أو المقطوعات التي صار لها سوق رائجة في وطننا العربي، لكثرة ما فيه من وسائل نشرية، موظفة كلها لتكون السنة «توعية وتثقيف» من قبل الدول والممولين الأغنياء، وهم كثر والحمد لله.

ولقد فكرت طويلاً في عبارة «حملة الأقلام» هذه، ومسؤولية الذين تطلق عليهم، وعدت إلى التاريخ البعيد والقريب، باحثاً عن الآثار التي كانت لهم، لا في صنع التقدم، من حيث أن القلم أداة تجديد، وأداة استئناف ضد الواقع، بل في صنع الثورات التي قلبت القديم قلباً، واجتثت جذور الماضي لتصنع مستقبلاً، كان في وقته نقلة جريئة بين عبودية القرون الوسطى وأنوار عصر النهضة، في أوروبا أو في الشرق العربي. لقد كان القلم، سواء في أيدي فلاسفة الثورة الفرنسية ومفكريها، أو في أيدي منظري ثورة أوكتوبر الاشتراكية وقادتها، أداة خطيرة بلغ من شأنها أن زعماء الاشتراكية العلمية قرروا عن دراسة وتجربة، أنه لا حركة ثورية دون نظرية ثورية، وأن هذه النظرية يصنعها الفكر ويترجم عنها تدويناً ونشر القلم.

إن كل حركة في التاريخ، وكل اكتشاف في الطبيعة والمجتمع، وكذلك كل إنجاز علمي، كان حلمًا في البدء، أفضى إلى فكرة، وصاغ القلم هذه الفكرة في مقولات ونظريات ومعادلات ودساتير، وفي صياغته هذه صاغ وجدانات الناس الذين أخذوا بتلك المقولات والنظريات والمعادلات، وصار لها، منذ انتشرت بينهم، فعل المادة المحركة لحدود الزمن، الصانعة للتغيير في الأنظمة الاجتماعية بعد ثورات أو انتفاضات هي وعي ومعرفة وحركة اجتماعية، تهدف إلى إرساء حقائق أرقى فأرقى. وتستشرف مستقبلات بشرية تطمح إلى ما هو أفضل في الحياة، وما هو أعدل في القوانين، وأسمى في المثل، وهكذا كانت السيرورة عبر النضالات والآلام، من المشاعية إلى الرق فالإقطاع فالرأسمالية فالاشتراكية التي هي حلم الدنيا كلها في عصرنا.

والجدير بالملاحظة، في أية دراسة فكرية موضوعية، أن معظم رجال القلم في التاريخ، كانوا إلى جانب التقدم، وبعضهم من شهدائه، وعطاءات القلم تتكامل، ولا تدعي المطلق، فمادية هيغل أفضت إلى المادية العلمية، بعد أن أوقفت على رجليها، وأزيلت قشورها المثالية، وأفكار الثورة الفرنسية قبل ذلك، تحولت إلى أفكار كومونة باريس، والواقعية النقدية في الأدب تكاملت مع الواقعية الاشتراكية التي أعطتها بعداً جديداً، وهذه رحبت فما تضيق بمدرسة أدبية، ولا بتيار تعبيري، لكنها تظل هي نفسها الواقعية الخلاقة التي تأخذ في ذاتها، كما تأخذ الذات في مدارها، كل الانعكاسات الخارجية، فتحولها إلى معملها الخاص، معمل الذات المبدعة، وتعكسها بعد عملية تمثل معقدة، فتصير في الصياغة الفنية إبداعاً فنياً خالصاً، كما تصير الواقعية، التي تتسع وتغتني وتتمثل، طريقة في التعبير قابلة لاحتواء كل التيارات الأدبية دون أن تنسلخ عن واقعيتها، أو تصير فوقها أو تحتها.

ولقد حملت القلم مصادفة وقصداً في آن. كانت أمي، بعد عودتنا من الضياع في بر أرسوز، تحلم أن تبعث بي إلى المدرسة. كان والدي أجيراً زراعياً عند إقطاعي في ضواحي إسكندرونة يدعى حنا خريستو، وكان والدي يناديه الخواجه خريستو، وكنا، كسائر سكان إسكندرونة، نلفظ ألقاف مشبعة، أي نقلقل بها، وقد لاحظت، في سن مبكرة، أن والدي حين كان يتكلم مع الخواجه خريستو أوالست «أليس» زوجه، يقوم بتخفيف القاف ولفظها أشبه بالهمزة. فسألته عن ذلك مستغرباً. وكان جوابه «هذه لغة الأوادم»ولم أفهم، ولما استزدته إيضاحاً للغة الأوادم هذه قال: إن ترقيق اللفظ، مع السادة، يعد من الأدب، وأنه تعلم ذلك في زحلة، عندما كان أجيراً في المطرانية، وقبلها سمع بترقيق حاشية اللغة في مصر، أم الدنيا، حيث باعة الفواكه يتغنون بمحاسن فاكهتهم غناء، ولا ينادون عليها مناداة كما عندنا. وهكذا صار والدي ذا حظوة اعتبارية فوق حظوة الأبوة، باعتباره يتكلم لغتين، أما الوالدة فلم تتكلم إلا لغة واحدة، هي لغة القاف، وعنها أخذت هذه اللغة التي كثيراً ما أزعجتني في كبري، خاصة بعد مجيئي إلى دمشق ومعاشرتي الأوادم، في الصحافة أو مع الأدباء الذين تفضلوا مشكورين فقبلوني كاتباً تحت التمرين في أول لقائي بهم.

أعود إلى حلم الوالدة الذي تحقق بعد طول عناء، فقد

قبلني المعلم نعيم، مدير مدرسة الطائفة الأرثوذكسية، تلميذاً في الصف الأول وأنا في السابعة من عمري، وكان خوري المدينة، ويدعى لاونديوس هو الرئيس الفخري للمدرسة، وكان فيها، إلى جانب المدير الذي تاب وأصبح خورياً في الكهولة، ثلاث آنسات. وقد عطفن علي، أنا الفقير الغريب، أكثر من المدير نفسه، وإحداهنّ، وتدعى أوجيني، ستتنبأ لي بمستقبل باهر، فهمته والدتي حين نقلت إليها النبوءة بأنني سأصير كاهناً أو شرطياً. هكذا دفعة واحدة، دون حل وسط بين الكاهن والشرطي، وضعتني بين قطبين متباعدين، لكنني، لضحك الأقدار، صرت حلاقاً، وذلك ترقية بعد عملي أجيراً عند عائلة لرعاية الطفل، وبعد أن عملت في الميناء، وعند مؤجر دراجات، وبعد أن رفضت أن أدخل مدرسة إنجيلية لأن مديرتها امرأة، ولأن قسيسها بغير ذقن، ومقبرتها فقيرة في ذيل الجبل.

في المدرسة قرأت «المدارج»، ثم استعرت كتاب «المشوّق» من عند قريب حسن الحال كان يدرس في «الفرير»، وقد طالعت «المشوق» عدة مرات، وحفظت بعض قصائده، وعندما نلت الشهادة الابتدائية، وختمت، لأن الإعدادية كانت في حلب، ومن أين لي أنا الفقير الذي كان يسير حافياً في الصيف، وينتعل الصندل في الشتاء فقط، أن أذهب إلى حلب وأدرس فيها، عملت في الميناء، وكسبت بعض القروش التي سر بها والدي، لأنها زادت في دخل العائلة المؤلف من قروش أخرى هي أجرة أخواتي الخادمات ومن القروش التي جمعها هو من بيع «المشبك».

في تلك الأيام لم تكن المدينة قد عرفت المراوح الكهربائية. إسكندرونة مدينة ساحلية والرطوبة فيها عالية، وفي الصيف يتعرق الناس حتى يتبلل قذالهم، من أجل ذلك كان عند كل حلاق مروحة كرتون، مكشكشة بالورق الملون، معلقة بعارضة خشبية، ويتدلى منها حبل «وظيفتي» أنا الأجير أن أشد به مثل حبل جرس الكنيسة، لأكش الذباب وأجفف عرق الزبون، لهذا السبب كان الصيف بغيضاً بالنسبة إلي، وكنت أقف، أو أجلس، وأنا أشد حبل المروحة، ويدي اليمنى طالعة نازلة، حتى إذا تعبت شددت الحبل باليسرى، وكثيراً ما كان يلم بي النعاس، وأنا جالس، فأهوم ويدي تعمل بحركة تلقائية، ثم تتباطأ، وعندها كان معلمي حنا شبر يصيح بي: «شدّ يا ولد» فأستيقظ وأعاود الشد، أو يأمرني، إذا كان الوقت بعد الظهر، أن أغسل وجهي بالماء البارد، فإذا لم يكن لدي شد، أو كنس، أو مسح، أركض إلى كتاب القراءة، وهو ألف ليلة وليلة طبعة اليسوعية، وقد استعرته من الأستاذ الياس مدني، المعلم في المدرسة الانجيلية والذي كان مثقفاً، ويقرأ مجلة «المكشوف»، ويعيرني إياها بعد الانتهاء منها.

كان «ألف ليلة وليلة» كتابي المفضل بعد «المدارج» و«المشوق»، ولشد ما كنت أحبه، وأعيش أجواءه السحرية، فأنسى واقعي، وأهيم في دنيا الخيال، ومع السندباد والبحارة وطير الرخ وشاه بندر التجار، وشهر زاد، وكان مساعد المعلم، ويدعى جورج شعلة، يضيق بالقراءة، ويفضل لعب النرد، لذلك يسحب الكتاب من يدي عنوة، كي ألاعبه النرد، فإذا رفضت، شوقاً إلى متابعة موقف مؤثر، كان يشدني من أذني، فأذعن كارهاً لمصيبة النرد الذي صار بيني وبينه عداء إلى يومنا هذا.

وأول سفارة قمت بها لمعلمي الحلاق تسببت في فضيحة. ذلك أنه أرسلني كي أقول لفتاة خادم أنه ينتظرها مساء على شاطىء البحر، فذهبت وطرقت الباب، ولسوء الحظ خرجت إلي السيدة، فأبلغتها الرسالة، دون أن أميز بينها وبين الخادم، وعندئذ شكت الأمر لزوجها، وجاء هذا إلى دكان الحلاقة مهدداً، وكانت النتيجة أن قطعت رزق الخادم، وصفعني المعلم صفعة شديدة، ومن يومها لم أقم بأية سفارة بينه وبين أية امرأة. وكان هذا أفضل، لأنه وفر لي وقتاً إضافياً للقراءة.

الأستاذ الياس أحبني، خاصة حين اكتشف تقدمي في الفهم، وذات يوم قال معلمي الحلاق، أنه جاء في الحكاية الفلانية أن الرجل انكشفت عورته، لأنه كان بعين واحدة، فتدخلت لأصحح قائلاً إن العورة لا تعني العين العوراء، وإنها كلمة سيئة، فقال الأستاذ الياس «برافو، صحيح» لكن معلمي طردني يوماً كاملاً من الدكان، بحجة أنني حشري، أتدخل بينه وبين الزبائن، وأرد عليه بوقاحة أمامهم.

كانت دكان الحلاقة تقع أمام الكنيسة مباشرة، وبيت الخوري إلى يمين الدكان، وبيت أسطفان إلى شمالها، وكانت بنت الخوري صبية رقيقة لطيفة، في وجهها غمازتان، تدعى ندى، ولدى بيت أسطفان، ثلاث بنات صبايا، إضافة إلى النساء المصليات، من جميع الأعمار، لذلك كان موقع الدكان استراتيجياً غرامياً، فكان الشباب يأتون ليقفوا أمامه، أو يجلسوا على الكراسي فوق مصطبته الإسمنتية. وكانوا يغازلون البنات، وكنت أرى هذا الغزل، ولا أتخذ موقف الحياد منه، بل موقف القاصر، فأنا صغير وفقير، وأجير حلاق، وكل ما أستطيعه أن أغذي صورة لا أبهى للمرأة، في ذاتي التي تعبت من الحلم بالمرأة، وصارت، مع اليفاعة، تطلب المرأة، فجاءتني فكرة أن أكتب رسائل وهمية، أدس فيها، أحياناً، أبياتاً من الشعر التقطها من مجلة المكشوف، وتطورت الحال معي من قارىء فقط، إلى قارىء وكاتب، أيضاً وكان معلمي يسخر مما أفعل قائلاً: «ما شاء الله كاتب التويني» نسبة إلى آل التويني، وشهرة جبران التويني صاحب «النهار» البيروتية، لكن ذلك لم يثبط من عزيمتي، وأخيراً كتبت رسالة بعثت بها إلى معلمتي فيكتوريا، التي كانت قد سافرت إلى أميركا،

أعبر فيها عن حرارة عاطفية زائدة، فجاءني جواب منها سررت به جداً، لكنه يتضمن نصائح لا تشجع على كتابة رسالة غرامية أخرى.

وكما حدث مع غوركي، صدقاً، حدث معي، والواقعة أن عيد الفصح، وذلك العام حل مع ورود الربيع، فاهتاجت عاطفة الأستاذ الياس إلى بنت الخوري، وأرسل لها علبة فيها رسالة وهدية معي، وكان من عادة الناس، في الفصح، أن يتبادلوا التهاني والقبل، ولا أدري سبب ظني أن بنت الخوري ستتسلم مني الهدية وتقبلني كما يفعل الآخرون، لكنها بدلاً من ذلك أعطتني كعكة صغيرة، رميتها على الدرج وأنا أفر هارباً كئيباً.

منذ تلك الأيام، شرعت استعمل القلم، ولا أكتفي بحمله، وكنت أكتب أشياء شبيهة بمواضيع الإنشاء، لكنها تعبر عن حياتي، وكنت أعرضها على الأستاذ الياس، فيشجعني، بينما معلمي الحلاق ينكد علي عيشي قائلاً: «أترك هذا العلاك وتعلم الصنعة... هذه أسورة ذهب، إذا لم تغن فهي تعصم من جوع» وتابعت «العلاك» وتعلم الصنعة، إلى أن وقعت الهجرة من اللواء، عام ١٩٣٩، فهاجرت مع عائلتي إلى اللاذقية.

(٢)

كتب تشيكوف في صدد مواعظية ولاعنفية تولستوي يقول: «إن فلسفة تولستوي الأخلاقية لم تعد تؤثر بي. فأنا لا أوافقه عليها أبداً. أنا نفسي أملك دماً فلاحياً، ولا يمكن لأحد أن يقنعني بفلسفة تمليسية كهذه تحت ستار الدفاع عن الفضائل الفلاحية (يقصد العقلية التواكلية القنائعية التي كانت سائدة بين الفلاحين)، في زمننا، لقد آمنت بالتقدم منذ صباي، والتفكير الجاد المتزن، إضافة إلى الإحساس بالعدالة، يدلانني على أن الكهربائي والنجار ينطويان على حب للبشرية أعظم مما تنطوي عليه الطهارة والزهد».

في الخامسة عشرة من عمري، ودون وعي، وبغير أن أقرأ كلام تشيكوف هذا، نبذت الزهد، وصرت من «الصنايعية» حسب تعبير سيد درويش، أصبحت خلاقاً أنطوي على حب كبير للإنسانية، إلا أنني لا أعرف، بعد، كيف أعبر عن حبي هذا بالمقص والموسى، ناهيك بالقلم الذي تركته مؤقتاً، آخذاً بنصيحة معلمي الحلاق في إسكندرونة بتفضيل «أسورة الذهب» على «العلاك» الذي أكتبه.

وفي اللاذقية، التي سأضطرب في العيش فيها، بحثاً عن الرغيف، والتي ستكون الحياة فيها مدرستي في الوعي السياسي، وفي الكفاح العملي، من قطف الزيتون إلى العمل في المرفأ، ومن بيع الصحف إلى أجير في مكتب رجل فرنسي يدعى «دولاكي»، ومن المشاركة في المظاهرات الوطنية إلى السجن، في هذه المدينة، وبتضحية نادرة من أختي قدسية، أمي الصغيرة كما أسميها، سأتمكن من شراء مرآة وكرسي حلاقة، وعدة غير كاملة، وأفتح دكاناً في حي القلعة، غير بعيد عن الثكنة، التي كان بعض جنودها زبائني.

لن أتكلم، في موضوعي المحدد هذا، عن حياتي في اللاذقية، فهذه الحياة، من خلال عائلتي وبعين يافع، ستكون الجزء الثالث من ثلاثيتي «بقايا صور» «المستنقع» وستكون الرواية ذاتية وغير ذاتية في آن، لها جانبها الشخصي، وجانبها الاجتماعي التاريخي، وسيكون علي، وأنا أستعيد تلك الأيام الرمادية، ذات النكهة المرة، أن أعيش الألم من جديد، وأستعيد وقائع حياة غريبة لا أدري لماذا اختارتني الأقدار كي أصبح بطلها، وتصبح اللاذقية، هذه المدينة الساحلية الجميلة موطناً لقصصي ورواياتي، برغم أني لم أعش فيها سوى سبعة أعوام بصورة متواصلة، وفي مهنة الحلاقة التي هاجرت إلى بيروت طلباً للعمل فيها، فقذفتني ريح غريبة إلى دمشق، وهناك عملت في الصحافة مصادفة.

في بدء عملي حلاقاً في اللاذقية، كان العمل قليلاً جداً، وقد تبين لي، بعد الشهر الأول، أن علي أن أبدل من هيئة الصبي الذي كنته إلى هيئة رجل، أو شاب على الأقل، أي أن أخلع البنطال الأسود، القصير، اليتيم، وأرتدي بنطالاً طويلاً، مع قميص أبيض لأظهر بمظهر حلاق، يقنع الزبائن أن يسلموه رؤوسهم وذقونهم. حكاية البنطال هذه وردت في قصتي «رسالة من أمي» التي نشرت في مجموعة «الأبنوسة البيضاء» وأخرجت فصلاً في تمثيلية تلفزيونية، وكانت بطلتها ابنة أختي هيفاء، ذلك أنها هي التي كانت تكتب رسائل أمي إلي. ووالدها وديع ياخور صاحب فضل علي، لأنه تبرع من «حر ماله» بشراء بنطلون الكتان، وخاطه لي عند جواد الخياط. أما السترة فقد تدبرناها من عند أرمني في البازار، يبيع «الروبابيكا».

وبسبب من ندرة الشغل في دكان الحلاقة، فقد أقنعني شاب صديق، مهاجر مثلي من اللواء، أن أتعلم العزف على العود. واقتنعت بالفكرة ونفذتها، لكن صوتي القبيح حال بيني وبين التقدم في العزف، أو إذا أردت الدقة، كانت أذني غير الموسيقية هي المانع، وعندئذٍ اقترح علي أن أنظم له أغاني يلحنها هو، ونغنيها بالأفراح، ونكسب رزقاً إضافياً، وقد تحمست للفكرة، ونظمت بعض الأغاني والمواويل، ولكوننا تقدميين، فقد أردناها ثورية، ثم تواضعنا فارتضينا أن تكون تقدمية إنسانية، ولحّن على عوده بعض هذه الأغاني، وكنت أضرب على الإيقاع، وهكذا شكلنا ثنائياً مثل فؤاد نجم والشيخ إمام، في بداية الحرب العالمية الثانية، لكننا لم ننجح، وبالتالي لم نستمر، وعندئذٍ انصرفت، في

وقت الفراغ، إلى القراءة والكتابة، وحفظ الشعر، وكنت أفضل عنترة على سائر الشعراء، أما المتنبي فلم تكن صحبتنا قد بدأت بعد، وبعد عشرين عاماً، كنت في عرس في بيروت، فغنى أحدهم موالاً، وسألني هل تعرف لمن هذا الموال؟ قلت لا، وعندئذٍ ابتسم وقال: هذا الموال لك، وقد أخذته عن فلان الذي كنت تنظم له الأغاني وخلافه.

ولأمر غير مفهوم، جنحت، بعد نجاحي في نظم الأغاني، إلى نظم الشعر، وكنت إذا توسمت في أحد الزبائن بعض الفهم، وألفيت لديه استعداداً للسماع، أقرأ عليه قصائدي، وأتباطأ في قص الشعر أو الحلاقة حتى أكون قد فرغت من «ديواني» وطلعت روحه هو من الصبر، وذات يوم جاءني زبون في سيالته قلم، ومع الأيام اكتشفت أنه من الجبل، ويحفظ الشعر، ويستطيع الحكم عليه، ففتح الله علي بناقد من حيث لا أتوقع، ورحت أسمعه أشعاري، وكان يبتسم إشفاقاً ثم صارحني برداءة شعري، وأنه لا فائدة من تعلم العروض، ومن «التخبيص» في النظم، ولم أكتب بعد ذلك سوى قصيدة غرامية، مطلعها:

ضحكت سعاد وليتها لم تضحك
فلقد غدا منها التضاحك مالكي

ودسست القصيدة في كتاب وأرسلتها إليها، لكنها أجابتني برسالة تأنيب فيها ما معناها: «كف عن أكل هذا الهواء» وكففت، وبعد ربع قرن التقيت بناقدي إياه في دمشق، وكنت أعمل في الصحافة ويعمل هو صاحب فندق، فسألني عما أحدثت بعد هذا الزمن، فضحكت وقلت: «أخذت بنصيحتكم يا سيدي».

هذا الاضطراب بين الأجناس الأدبية، أي الأغنية والشعر والقصة القصيرة، كان مبعثه حبي الكبير للإنسانية، والرغبة في خدمة التقدم، والنضال ضد الظلم الاجتماعي، لإيماني أن المهنة التي امتدحها تشيكوف، وفضلها على الطهارة والزهد، لم تكن كافية لخدمة «القضية» التي صرت من «حملتها» ولأن الزمن حولني من حامل قلم للزينة، إلى حامله للكتابه، وفي كل ذلك لم أكن أفكر أن أصير كاتباً، بل كانت الكتابة، إضافة إلى التظاهر والملاحقة والسجن، نوعاً من الكفاح، وكانت المرأة، منذ كنت أجير حلاق في اللاذقية، تلهب مشاعري، فصارت الكتابة، سبباً آخر للكفاح الغرامي، هذه المرة ولأنني لم أوفق إلى إيما حبيبة، فقد كتبت قصة رجل تقلل من شأنه، أو تستصغره إحدى الفتيات، لكن هذا الرجل كما في الأفلام المصرية تلك الأيام، لا يلبث أن يصير شهيراً، دون أن أكلف نفسي عناء تبرير هذه الشهرة، أو التمهيد لها، لتأتي المصادفة بنت الضرورة، وعندئذٍ تعود الفتاة إلى التودد إليه، فيتعالى عليها ويطردها، ووضعت عنواناً معبراً للقصة هو: «هذا رجل!»، مع علامة تعجب وجدتها ضرورية جداً. ولأن الأتراك اغتصبوا لواء إسكندرونة، وعانى العرب مظالم لا حد لها على يديهم، وكانت عائلتي قد تشردت من السويدية إلى الأناضول في «سفربرلك»، ثم أمضت أياماً صعبة في الحرب العالمية الأولى، حين سيق والدي إلى الجندية بغير سلاح، أي للخدمة في شق الطرقات ومد سكك الحديد وإقامة الاستحكامات، فقد نقمت على الحكام الأتراك، وخاصة العرقيين أو الطورانيين، وكتبت قصة قصيرة بعنوان «الذئاب التركية» اسم بطلها نامق بك، وهكذا صار تعمق الإحساس بالوعي، يعمق إحساسي بفاجعة التركيبة الاجتماعية للمجتمع الطبقي، وصار الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، واستبدادية المستشارين الفرنسيين، وخيانة بعض السوريين من صنائع فرنسا، مثار نقمة مضاعفة، فكنت إذا انتهى اليوم، وانقطع ورود الزبائن إلى الدكان، أغلق أبوابها الخارجية لمنع تسرب النور من جهة، والتماساً للوحدة من جهة أخرى، فتصير الدكان صومعة بالنسبة لي، أين منها صومعة ميخائيل نعيمة ناسك الشخروب، مع فرق أساسي، هو أنني لم أكن ناسكاً، وكنت أزعم لنفسي أنني ثائر، فأكتب الخطابات التي سلتقى في المظاهرات ضد فرنسا في اليوم التالي، وأضع قصصاً أو مشاريع قصص ضد فرنسا، وأبقى ساهراً إلى ساعة متأخرة، على نور كهرباء شحيح من كهرباء أيام الحرب العالمية الثانية. وإذ أعود إلى البيت أدخل غرفتي وأتابع «فتوحاتي»، مناضلاً بالجسد والقلم والكلمة، مما جعل أمي تخاف علي وتزيد من خوفها امرأة عمي التي قالت لها «ابنك يا أم حنا سيجن... خذيه إلى الخوري يا أختي، أو إلى الأرشمندريت جبرا، الذي صلاته تقضي على جميع الأرواح النجسة، وتخرج الشياطين من الأجسام، بالقوة التي أعطاها السيد المسيح لأمثاله من رجال الكهنوت» وصدقت أمي الموسوسة على صحتي أصلاً، وفاتحتني بزيارة الأرشمندريت جبرا فرفضت، وعندئذٍ زادت امرأة عمي في تخويف أمي، فقالت لها: «ما هذا الذي يفعله ابنك يا أم حنا... عشنا وشفنا... الشباب أمثاله يذهبون إلى الكنيسة كل أحد، ولا يفرطون في الصوم الكبير، ويداومون على الصلاة في الجمعة الحزينة، ويخرجون إلى النزهة، يوم الاثنين، وهو موعد عطلة الحلاقين، ويتعرفون إلى البنات، ويجهلون ويعشقون... دبري رأسك يا حرمة وإلا راحت على الولد... ابنك مسكون يا أم حنا، اكتبي له حجاباً، رقوة، اعملي أي شيء، امنعيه بالقوة من القراءة والسهر وحيداً، المسألة خطرة: إذا لم يجن الولد قتله الفرنسيون لأنه يشتغل ضدهم، وإذا لم يقتلوه سجنوه، وهو مثل عرق النعناع يا حسرتي، لا يحتمل السجن والتعذيب». وعندما جربت أمي مرة ومرة، التدخل في شؤوني، حسمتها معها مرة وإلى الأبد، وهددت بترك البيت، فسألتني بكلمات لا أرق منها: «وماذا

تكتب يا تقبرني»؟ قلت لها: «أكتب قصصاً» «وما هذه القصص؟» وهنا أسقط في يدي حتى انتشلتني من حيرتي بهذا السؤال: «يعني حكاية مثل حكاية «ضاهر وزهرة» فجاءني الفرج وأجبتها «مثلها تماماً» وعندئذٍ استسلمت للأمر الواقع وقالت: «إذن الله معك» وفي الصباح الباكر، قبل أن أشرب فنجان القهوة، جاءتني بمنقل وهو ينفث دخاناً كثيفاً من كثرة من ذرت عليه من بخور.

أغرمت، في تلك الفترة، بقراءة مجلة ألف ليلة وليلة التي كان يصدرها كرم ملحم كرم، وكنت أعيش مع قصصها، وأتعشق ذلك الجو اللبناني في «بونا أنطون» وغيرها من القصص، وباب «أيام العرب» و«تاريخ ما نسيه التاريخ» لحبيب جاماتي، وأضع تحت يدي دفتراً صغيراً أدون فيه بعض الأشعار وأحفظها، وقد اهتممت، دون أن أفهم تماماً، بالمعركة الأدبية التي قامت بين كرم والياس أبي شبكة، وكان كرم من حزب «الأخطل الصغير» بشارة الخوري، وقد نشر له قصيدة المسلول، وكان ذكر مرض السل وحده مرعباً، مع ذلك تشجعت وقرأت القصيدة، وردّدت، وما زلت، ذلك البيت الذي يقول:

أين التي كانت تقول له
ضع رأسك الواهي على كبدي؟

وحزنت لأنه ليس لي صدر أضع رأسي المتعب عليه سوى صدر أمي، وازداد حزني فكتبت مقالاً بعنوان «اليائس»، قرأه طالب جامعي كان يدرس في دمشق ويحلق عندي، فاحتار في إعطاء الجواب في تقويمه، لكن عبده حسني، المناضل القديم قال لي بعد قراءته: «ما شاء الله يا شيخنا، تعد نفسك ثورياً وتكتب عن اليأس، الثوريون، يا حبيبي، لا ييأسون، أو يجب ألا يفعلوا، من أين جاءتك هذه الأفكار السوداء؟» ودفاعاً عن «نقاء» ثورتي أجبت: «هذا يأس رومانتيكي!» فسألني: «وما هي الرومانتيكية؟» قلت: «لا أعرف بالضبط، ولكن العشاق يبكون؟» «وهل أنت عاشق؟» «أنا أبكي لأنني لا أجد من أعشق» عندئذٍ أشعل سيكارة، وبدأ كلاماً جدياً عن المبدأ، والنضال، وفرنسا، والأغنياء، ختمه بهذه العبارة: «أمثالك يعشقون القضية» ولم أكن بحاجة إلى من يذكرني بذلك، أو إلى من يزيدني عشقاً للقضية، لكن مسألة «ضع رأسك الواهي على كبدي» فتنتني وكنت في المراهقة، وأشتهي صدراً، أشتهي، حبيبة، فتاة أكتب إليها رسائلي الغرامية، والأم لا تقوم هذا المقام، فقررت، في ضوء القصيدة، أن أكتب قصة أرسلها إلى مجلة «ألف ليلة وليلة»، وذهبت إلى البحر أستوحيه، وعرجت على المقبرة لتكون القصة واقعية حزينة، وباشرت الكتابة، فإذا جميع الأبطال يموتون بالسل والعدوة من الصفحات الأولى، فلم أستطع إكمالها، وبعد عشرين سنة أو أكثر، سأقص الواقعة على صديقي المفكر الأستاذ رئيف خوري، إذا به يضحك ويروي لي هذه الحادثة: «كنت شاباً كاتباً، مزهواً بنفسي، ومعروفاً في أسرة مجلة «المكشوف» وقد تعرفت إلى كرم ملحم كرم، فطلب مني أن أساعده في المجلة، وأن أكتب لها بعض القصص، وأغراني العرض، فذهبت إلى إدارة «ألف ليلة وليلة» وأفرد لي كرم طاولة، ونصحني أن أدخن النارجيلة وأنا أكتب بدلاً من السيكارة، وكانت الأركيلة بالنسبة إليه رفيقاً دائماً، وبقيت من الصباح إلى الظهر وأنا أحبر الأوراق، وأشرب السيكارة، والنارجيلة، وكرم ينظر إلي من مكتبه منتظراً النتائج، ثم جاء إلي، ومن فوق كتفي قرأ الأوراق القليلة المحبرة، ولما فرغ منها قال لي بلهجته اللبنانية الجبلية: «إيش هذا يارئيف؟ إذا كان البطل «يركب» البطلة من أول القصة، فكيف نفعل لنملىء صفحات المجلة»؟

فضلت، بعد ذلك، كتابة القصص القصيرة، التي كنت أنشرها في صحف اللاذقية، وأخيراً غامرت وأرسلت قصة إلى جريدة «بردى» لصاحبها المجاهد منير الريس، وكدت أرقص طرباً وأنا أرى قصتي منشورة، ومذيلة باسمي، ومن المرجح أن الأستاذ الريس نشرها لأنها ذات روح وطني، وضد الفرنسيين ومهما يكن الدافع للنشر، فإنه شجعني جداً، فطفقت بتدبيج المقالات لصحف العاصمة، وقد أعجبت وديع الصيداوي صاحب «النصر» فراح ينشرها في أول صفحة المحليات، على عمود كامل، وكنت «أثقل» العيار على أميركا، وهذا ما جعله ينشرها دون أجر أوكلمة شكر، وفي تلك الأيام لم تكن الصحف أو المجلات تدفع، بل الكتاب يدفعون، ويقدمون الهدايا، ويبعثون بالرسائل الرقيقة، وكل هدفهم الشهرة، باعتبارها الوحيدة الممكنة، بل الوحيدة عزيزة المنال.

فجأة وصل إلى مكتبة «عكاظ» التي أتعامل معها بالإعارة ديوان «الملاح التائه» لعلي محمود طه، وفيه قصيدة الجندول، وهنا أيضاً تستهويني رومانيتيكية «أنا من ضيع في الأوهام عمره» فحفظت القصيدة، ووصلت إلى الخاتمة دون أن أتجاوز البداية، إذ اعتبرت نفسي شهيد الحب، المضيع، الذي يقضي عمره في الأوهام، ورحت أردد هذا البيت من الشعر اليوم طوله، حتى سمعني عبده حسني، فقال لي، كالمعلم الصارم، الذي ضبط تلميذه في ذنب لا يجوز التسامح حياله «القضية ليست وهماً... صاحب القضية لا يضيع عليك، عليك أن تقرأ جريدة «صوت الشعب...» وعيك السياسي ضعيف... ما شاء الله! تضيع وأنت في أول الطريق؟» سألته أين أجد «صوت الشعب» فقال إنه سيأتيني بأعداد منها، ولما كانت لا تباع كالصحف الأخرى في الأسواق، فقد كتبت إلى إدارتها عارضاً أن أبيعها متطوعاً في اللاذقية، ولاقت الفكرة قبولاً، بل استحساناً، وصارت تأتي

الأعداد بعد ظهر كل يوم، فأذهب إلى البريد لتسلمها، وأفتح اللفافة وأبدأ بالقراءة وأنا عائد إلى الدكان، وكما يفعل باعة الصحف، علقتها على باب دكاني، ثم وجدت من الأفضل الطواف بها وبيعها، وكان عندي أجير يدعى باسيل، وهو الآن حلاق ناجح في اللاذقية، فصرت أحمله الجريدة وأدفعه للطواف في الأسواق والمناداة عليها، لكن أمه احتجت قائلة: «أرسلنا إليك ابننا ليتعلم الحلاقة لا لبيع الصحف» ولما توقف عن بيعها، غامرت بالنزول إلى السوق وبيع الجريدة، والمناداة عليها بنفسي، وأمي تلطم خدودها، وامرأة عمي تزداد انتقاداً لتصرفي، وأهل الحي يتعجبون من حلاق يترك زبائنه ويبيع جريدة لا يعرفون من أمرها شيئاً.

وبتحريض من عبده حسني، الذي هو خليل في روايتي «الثلج يأتي من النافذة» صار لقلمي وجه آخر للاستخدام، هو كتابة العرائض وجمع التواقيع عليها من أهل الحي والشارع، وكتابة الاسترحامات، والرسائل، وحسبت أنه صارت لي دالة على «صوت الشعب» فأرسلت لها مقالاً لم تنشره، وإن كانت قد نوهت عنه، فأرضاني ذلك، وتابعت العمل على كل «هذه الجهات».

أخيراً زف إلي صاحب مكتبة عكاظ بشريين في وقت واحد: بشرى صدور مجلة «الصباح» في دمشق لصاحبها عبد الغني العطري، وهي مجلة أدبية صرفة، نشرت قصيدة صغيرة للشاعرة عزيزة هارون، وبشرى وصول كتب توفيق الحكيم، التي أحدثت دوياً عند صدورها، فاشتريتها واحداً بعد آخر، وكتبت مقالاً لمجلة «الصباح»، لم ينشر، لكن صاحب المجلة «نقشني» مقالاً بعنوان «إلى قارىء» ينصحني فيه بأن أكتب وأمزق، وأكتب وأمزق، قبل أن أقدم على نشر إنتاجي.

وذات يوم، عدت إلى الدكان فوجدت صورة فتاة ملقاة على أرضها، كان الباب الزجاجي مغلقاً لكن فيه لوحاً مكسوراً، فاستنتجت أن الفتاة المتيمة قد رمت لي بصورتها، وأن الحب قد بدأ، وأرسل الله لي الفتاة التي تقول «ضع رأسك على كبدي» غير أن صاحب مكتبة عكاظ أرسل في طلبي، وأفهمني بمودة أن الكتاب الأخير الذي استعرته من مكتبته، كانت قد استعارته فتاة قبلي، ونسيت فيه صورتها، وهو يعرف استقامتي، وشرفي، وشجاعتي الأدبية، وبفعل كل هذه «الشهامات» يسألني عن الصورة وما إذا كنت قد رأيتها في الكتاب، واحتفظت بها. باخت فرحتي فوراً، لإدراكي أن الصورة سقطت من الكتاب في الدكان، وليس ثمة حب ولا ما يحزنون، وبطيبة خاطر اعترفت بالحقيقة، ورويت الواقعة كما جرت، وعدت إلى دكاني «كما يعود المنكسر من ساحة الحرب» حسب تعبير المنفلوطي، فأحضرت الصورة ودفعت بها إلى صاحب المكتبة، وبعد أيام نقل لي شكر الفتاة، واستحسانها فعلتي، واستغرابها أن أكون حلاقاً أمام الثكنة، وأقرأ كتباً أدبية لا يقرأها سوى طلاب البكالوريا... وانتهت الحادثة دون أن «يختم الصبر حبنا بالتلاقي».

وفي إحدى المظاهرات ضد فرنسا، للمطالبة بالجيش، مع التهديد بأن باريس ستكون مربط خيلنا، اعتقلت ودخلت السجن لأول مرة، ثم تكررت المظاهرات ودخول السجن، وخاف الزبائن ولم يعد يحلق عندي أحد، فأغلقت الدكان، وهاجرت إلى بيروت، ثم إلى دمشق، وهناك سأعرف، بعد طول عناء، لماذا أحمل القلم، وماذا علي أن أعمل به.

(٣)

في دمشق، وخلال عملي في الصحافة، خطر لي، لأول مرة، أن من الممكن، إذا اجتهدت، وثقفت نفسي، وقرأت الكتب الأساسية، في التراث والآداب الحديثة، أن أصبح يوماً من «حملة الأقلام». كان أحد الأصدقاء قد أخذني إلى جريدة «الإنشاء»، وقدمني إلى صاحبها المرحوم وجيه الحفار، على أنني من الكتاب، وكنت أراسل الصحف من اللاذقية، ونشرت في جريدة «النصر». هذا التقديم الذي لا ينقصه المديح الزائد، ودالة الصداقة مع صاحب الجريدة، وإبراز بعض القصاصات، حسبته سيفتح لي الباب، وأن البشرى ستطير إلى أمي أن ابنك لم يجن، ولم يكون مسكوناً، وأن طلب العلى في سهر الليالي قد تكلل بالنجاح أخيراً، وصار صحفياً.

وتصوروا فجيعتي، أنا الذي لا أملك بيتاً ولا مأوى، ولا ثمن الطعام، حين تفضل صاحب الجريدة فاقترح أن أعمل في صحيفته مجاناً، وتحت التمرين، إلى أن تثبت كفاءتي، وعندها ينظر في تقدير ما أستحق من أجر. لفظ هذه الكلمات بنبرة حاسمة، نبرة الحاكم بأمره، وانصرف عني إلى الكتابة، منتظراً، بغير مبالاة، أن أعطي جواباً بنعم أو لا، لأنه مشغول جداً، ولا وقت لديه لمزيد من الحديث.

غامرت وأجبت بنعم. عندئذٍ أرسلني إلى سكرتير التحرير، الإنسان الرائع، المرحوم أحمد علوش، وتكلم معه بالهاتف شارحاً الموضوع. استقبلني أحمد بمودة، طلب لي فنجاناً من القهوة، سألني ماذا كتبت، وأخيراً دلني على مكتب فارغ، وقال لي، في محاولة جد لطيفة للامتحان، يمكن تلخيص هذا الخبر؟ لخصته بشكل مقبول، لم يحتج معه إلا إلى تبديل كلمتين أو ثلاث، ووضع له عنواناً ودفعه إلى المطبعة. كانت تلك العلامة الأولى في دفتري الصحفي، وقدرت أنها فوق الوسط، فتجرأت وطلبت عملاً جديداً، عندئذٍ استدعاني إلى مكتبه، وعلمني طريقة تصحيح البروفات، ودفع إلي بكومة منها، فصححتها بدقة وانتباه، ودونما

تأخير. وحوالي الظهر، وكانت الجريدة مسائية، صدر العدد، فأعطاني نسخة منه، وطلب مني أن أعود في الخامسة مساء للعمل في المحليات، وتهيئة مواد الصفحة الثالثة. كانت الجريدة كلها بأربع صفحات، وكان هو هيئة التحرير بكاملها، وأصبحت أنا مساعدة، وخرجت من المطبعة وأنا مرتاح للنتائج، فابتعت بقروشي القليلة سندويشة فلافل، وذهبت إلى أختي المقيمة في دمشق! وأخبرتها بفرح، أنني توظفت، لكنني تلعثمت وأنا أضيف: بغير معاش مؤقتاً. الأخت هي الأم في كل الظروف، ومثل أمي استقبلتني في بيتها، وقالت «تنام وتأكل مما نأكل حتى يفرجها الله».

هذا الفرج لم يتأخر، بعد شهر، وبإطراء واقتراح من معلمي أحمد، طلبني صاحب الجريدة، وأبلغني أنه سيدفع لي مئة ليرة سورية في الشهر، وأنه قرر اختصار مدة التمرين، لما أظهرت من «ألمعية» وفق ما فهمت من فحوى كلامه، وعدت ظهراً أضع المستقبل في جيبي، وأبحرت على قارب السعادة الذي شراعه غمامة، فزففت البشرى لأختي، التي نصحتني أن أكتب لأمي، حتى ترسل لي فراشاً ولحافاً، لأنني توظفت وأقمت في دمشق بصورة دائمة.

كان ذلك في العام ١٩٤٨، وكانت نكبة فلسطين قد حلت، ولم ينجح جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي بإنقاذها، وكنت أجمع أخبار المعارك، والبرقيات السياسية، وتصريحات الزعماء العرب، من أمين الحسيني، إلى عبدالرحمن عزام، وأصنع منها خبراً رئيسياً، ينشر في صدر الصفحة الأولى، وكان أحمد علوش، القومي العربي التقدمي، يكتب عادة مقدمات لمثل هذه الأخبار الرئيسية، فلما صرت مساعده راح يملي مقدماته علي، وكنت أفرح بها، وأقبل على تدوينْ ما يملي بحماسة، ثم عاونته، متطوعاً، في تحرير «مجلة عصا الجنة» التي كانت تصدرها عصبة الساخرين، وتابعت التعاون معه، متطوعاً أيضاً، في جريدته «الصرخة»، وكنت قد أصبحت صحفياً معروفاً، لكنني، حباً وتكرمة، بقيت أناديه يا معلمي، وكان تواضعاً يجيب أحياناً «رب تلميذ فاق أستاذه» وكان هذا الجواب يرضي غروري.

سأبقى هكذا، في الصحافة الدمشقية، محرراً ثم سكرتير تحرير، وسأعمل في صحف ثلاث هي «الإنشاء» «النصر» «العلم» وأحرر الصفحة الأدبية في «الرأي العام» حين صدرت، بعد ١٩٥٤، وأُصبح مراسلاً لجريدة «المساء» المصرية التي يرئس تحريرها خالد محيي الدين إلى العام ١٩٥٩، حين تضطرنا ظروف قاهرة إلى مغادرة سورية إلى لبنان، ومنها إلى الصين حيث أتشرد عشرة أعوام متواصلة لم أكتب خلالها سوى روايتي «الثلج يأتي من النافذة».

خلال السنوات الثلاث الأولى من عملي في الصحافة، كنت قد تعرفت إلى بعض الأدباء الشباب، وفي عام ١٩٥١، سيكون لي شرف المشاركة بتأسيس «رابطة الكتاب السوريين»، ثم شرف المشاركة في مؤتمرها في أيلول ١٩٥٤، وفي هذا العام صدرت روايتي الأولى «المصابيح الزرق» ودخلت النادي الأدبي نهائياً، ثم في العام ١٩٥٦، وبعد حرب السويس، سأكتب روايتي الثانية «الشراع والعاصفة»، لكنها ستكون رفيقتي في الهجرة، وفي الضياع، وتطبع أخيراً عام ١٩٦٦، أي بعد ١٠ أعوام من تأليفها، بمساعدة الصديق العزيز والقاص الرائع سعيد حورانية.

على هذا النحو، باختصار شديد، كانت بدايتي الأدبية، سيرتي فيها، وبعد صدور «الشراع والعاصفة» اعترف النقاد، والرأي العام، بي كروائي، وصرت حامل قلم حقيقة، وتوضحت أمام ناظري مهمتي، كحامل قلم، ومن يومها أكافح على جبهة الفكر، بعد أن قصرت كفاحي، وعملي عليها، ووافق الأصدقاء والزملاء على اختياري، وتفرغت لكتابة الرواية ولم أزل.

أتساءل: هل كان علي، في الجواب على عنوان هذا المقال، أن أستعرض البداية، ومراحل البدايات، والدوافع التي حدت بي إلى الكتابة، ولماذا كانت الكتابة أصلاً؟ لقد أردت، أو فرض عليّ أسلوبي في القص، أن أعطي الجواب من خلال أحداث مرت بي، ووقعت فيها، وتمرست من خلالها، وأن تكون لها صفة السيرة لاعتبارين: الأولى أنني أمهر في القص مني في الدراسة، والثاني أنني، كما قلت في «هواجس التجربة الروائية» أرغب أن أبني علاقة حميمة مع القارىء، حميمة بما فيها من ود وصدق وصراحة، عارضاً نفسي وتجربتي، دون أن أقتصد في شيء، أو أخفي شيئاً، وأخجل من شيء، تاركاً للقارىء أن يعرف الجواب، أو يتلمسه، أو يستنبطه دلالة، دون أن أزعم لنفسي شيئاً، أو أدعي شيئاً أو أفرض عليه شيئاً أيضاً، فهو سيعرف، من سيرة حياتي الأدبية الملخصة، أنني فعلت كذا وكذا، وتعرفت بفلان وفلان، وساعد في تكويني هذا الكاتب أو ذاك، وأن أصدق قلبه الكريم أن الكتابة، في البدء على الأقل، كانت بالنسبة إلي «فشة خلق» من قهر اجتماعي، ثم صارت تنفيساً عن عواطف مضطربة، حبيسة الصدر وفي النهاية صارت قضية، وحول هذه القضية لا بأس من تقديم وجهة نظر، تحاول أن تقول لماذا اخترت الأدب، أو لماذا فرض الأدب نفسه علي، طريقة في التعبير عن عالمي الداخلي، وعالمي الخارجي، والعالم كله من حولي، وموقفي من قضايا الفكر والثقافة ومهمة حامل القلم.

كان رئيف خوري يقول: الكاتب مسؤول مسؤولية الطباخ، فكما أن هذا بحكم المهنة، الخلق، الحب الإنساني، وأخيراً القانون، مضطر أن يعد طبخته من مواد جيدة، لا تغش،

لا تضر، خالية من السم، فكذلك الكاتب، وهو يقدم طعامه الفكري، مسؤول بحكم كل هذه القيم، أن يقدم الجيد، والفاخر، والصحي من الطعام الأدبي والفني، ذلك أن الطباخ لا يطبخ لنفسه فقط بل للآخرين أيضاً، والكاتب لا يكتب لنفسه فقط، بل للآخر أيضاً، وفي تواصله مع هذا الآخر تنشأ علاقة جدلية، فهو يعطيه ما عنده، لكنه، قبل ذلك، يكون قد أخذ منه ما عنده، وهذا الاختراق المتبادل أو التأثر والتأثير المتبادلين، ينفي عن الكتابة صفة الحياد، فلا الكاتب قادر أن يكون محايداً، ولا القارىء، قادر، بعد القراءة أن يبقى محايداً، لأننا في الكتابة نقول له شيئاً، نومىء إلى شيء، نقدم دلالة، إشارة، مغزى، نسوق حدثاً، أسطورة، رمزاً، نبث فيه مشاعر، عواطف، أفكاراً، أي ندخل عالمه الداخلي، انطلاقاً من الخروج من عالمنا الداخلي، فيلتقي العالمان، ليكونا، من بعد، عالماً خارجياً معاشاً، منتشراً، مؤثراً، مرتداً، كرة أخرى، بعد أن يصير مادة واقع، إلى داخلهما معاً، لتعيد العملية نفسها، في تطور دائم، من ناحية المعنى، والأسلوب، والمضمون، وكل ما يتشكل ليصنع عقلية ترتب علينا مسؤولية صياغتها، وتحاسبنا على هذه الصياغة، في حال كونها صالحة أو طالحة، طيبة أو خبيثة، مع مسيرة التاريخ أو ضده.

إن حامل القلم هو حامل قضية، وهذه القضية مشتركة، فلا يستطيع التصرف بها، وحده، ولا سبيل إلى الاستقلال بها، أو التفرد في مسؤولية تأثيرها، ومن هنا يترتب عليه الحق في أن يكون في قضيته عاماً لا خاصاً، وهو كذلك بحكم الضرورة، فحين يكتب عن الأمبريالية، الصهيونية، الرجعية، العدوان، الحرب، القنابل الذرية أو النووية، تصبح كتابته قاسمًا مشتركاً مع المتلقي، ويصبح هو المؤدي، محكوماً بأن يقول الحقيقة، وكل حقيقة هي مع التاريخ، وكل ما ضدها هو ضد التاريخ، والكاتب الذي يقف ضد تاريخ الإنسان، البشرية، الجماعة، يقف، بالمحصلة، ضد نفسه، لأنه منها، ولأنها إلى وعي دائمًا وإلى ارتقاء في هذا الوعي دائمًا أيضاً، وليس من اليسير أن يضللها طويلاً، وهي تطالبه بأن يكون في كتابته مرآة، ترى فيها صورتها، بكل ما تعني هذه الصورة من قضايا ومشاكل ومطامح وتطلعات وبكل ما تختزنه في ذاتها، حين يكون الحكم متعسفاً، من حقد على هذا الحكم، حقد صامت في البدء، ثم متململ ثم متفجر، وحين يحدث الانفجار يعصف بكل القشور الصفر التي تراكمت على وجه الحياة الأخضر، وعندئذٍ سيتولى الشعب كلمته في الكاتب الذي حمل قضيته فيمجده، وفي الكاتب الذي كان ضد هذه القضية فيحتقره، ويأتي التاريخ، هذا الشيخ الجليل ذو اللحية البيضاء، وفي يده اللوح الذي حكم الإدانة فيه لا يمحى.

لقد أناخت الفاشية على إيطاليا، وانصبت النازية رصاصاً على صدر ألمانيا، وقهر فرنكو الجمهورية الإسبانية، وكل الذين تملقوا هذه الفاشيات، أو صمتوا حيالها، ارتموا حجراً بارداً في قاع الجحيم، حجراً مرفوضاً من الجحيم نفسه، بينما الذين ناهضوها، كان لهم شرف الصعود مع انتصارات الشعوب إلى سدرة المنتهى، وسيبقون أحياء لا في ذاكرة التاريخ وحده، بل في ذاكرة الذراري التي كانوا من أسلافها، إن تارنتا بابو ستبقى، بينما ذرت الريح النتن الملعون لخطب موسوليني، واشمأز الثرى من جثمانه الذي طمر بغير كرامة، وهتلر مضى، لكن بريخت وأمثاله بقوا، وفرناندو أربال، أحرق، بكلماته النازية في رسالته إلى فرنكو، كل أوامره الدكتاتورية.

قال آلان روب غرييه: «إنني أقذف بحجارتي إلى الشارع» فرد عليه ميشيل بوتور «ولكن ينبغي أن تتأكد أنها لن تصيب أحداً من المارة» وتعليقاً على ذلك، كتب فاضل العزاوي في «السفير ١١ ــ ٤ ــ ١٩٨٢» أن الحجارة تصيبنا في كل لحظة ما دمنا اخترنا أن نعيش في مرمى الحجارة. كل كتابة هي حجارة ترمى في مهرجان بشري، وليس ثمة بد من ذلك، إن الكاتب في عصرنا يقف وسط معركة تاريخية كبرى، إنه لا يغني فقط معارك الآخرين مثلما كان يفعل هوميروس مثلاً، ولكنه بفنائه هذه المرة يشترك في المعركة، وهو بغنائه أكثر المحاربين عرضة للإصابة، لا لأنه مكشوف فحسب، وإنما لأنه يختزن في صوته صرخة طابور من المقاتلين. لقد قتلوا لوركا تحت شجرة منفردة، رغم أنه لم يكن يحمل بندقية على كتفه.

يضيف: «وفي هذه المعركة التاريخية الكبرى لا بد أن نميز بين الكاتب الذي يقاتل من أجل ولادة إنسانية جديدة والكاتب الذي يضل طريقه إلى المستقبل، ولكن الأسوأ من ذلك (وها نحن نرى كتاباً عرباً) أن يمجد الكاتب الإرهاب والموت والخيانة. إنهم (وهم كتبة التخلف العربي) ينحدرون إلى مستوى كلاب مسعورة، لا تجد في فنها سوى وسيلة لتمجيد سيدها الذي يقذف لها بالعظام بين حين وآخر، عظامنا نحن، فتقضمها، ثم تعوي قصيدة عصماء، يا للبؤس الإنساني!».

ويذكر اربال، في حديثه مع مونيك بوبير عام ١٩٦٥: «إن عالماً من الحب والهوى المتقد، يبتكر في كل لحظة لانهائيته، لقد اختبرت عبر العذاب كل كثافة الحب، لقد شعرت أن المرء ــ ربما أنا بالذات ــ عندما يريد إظهار حبه، يكون منطلقه، أن يبعد نفسه تماماً عن الموت، ولأنه يسترشد بالحياة، فإنه يسترشد بممارسة معينة للقوة». وفعلاً استرشد اربال بهذه القوة، حين كتب رسالته إلى فرانكو عام ١٩٧١، لا ليروي عذابات حياته في ظل الفاشية الفرنكوية فحسب، وإنما عذابات شعب بكامله. إنها أكثر

من رسالة. إنها وثيقة إدانة. ما أكثر الرماد. ما أكثر الدموع وما أكثر الموت البطيء حيث تدفن الجثث على قرع نواقيس افترسها الصدأ. (مقاطع من الرسالة، ترجمة ممتاز كريدي).

لقد تعلمت، في سن مبكرة، أن أكتب عن الناس للناس، أن أكتب عن بعضهم لكلهم، لأنه محال أن يقوى كاتب، مهما تكن طاقته، ومهما امتد به العمر، أن يكتب عن الناس كلهم، وأن يخرج من كتابته بشعور من الرضى، لأنه وفّى الذين كتب عنهم حقهم، أما هذا «البعض» الذي نكتب عنه، فهو فرع يعبر عن أصل، في شمولية النظرة في أن يكون في وسع موهبتنا، تجربتنا، وحبنا الإنساني، أن يبدع نماذج إنسانية، بالغاً ما بلغت محليتها، يصح فيها التعميم، بحيث يقرأها كل الناس، في كل القارات، ولا يجدون فرقاً بين الناس المكتوب عنهم وناسهم، أو يجدون فرقاً بسيطاً هو فرق المكان، أما الصورة الإنسانية فهي واحدة. في حال كهذه فقط، يمكن أن نقول إن صوتنا حمل أصوات الآخرين، وأنه بلغهم، وصار صوتهم، صار صرختهم من ألم، وهتفتهم من فرح، وأصبحنا نحن، حملة الأقلام، ترجماناً عن ضمائرهم، ولن يكون في وسعنا أن نبلغ هذا الشمول، هذا التعميم، إلا بأن نكتب بصدق، بأصالة، بجودة، وتشويق، وإيقاع، وإمكانية خارقة على التحريض، وهذا يتطلب إضافة إلى الموهبة، الممارسة، العمل، الإتقان، سعة التجربة، المشاهدة العيانية، الإحساس المرهف، الحب البشري الذي لا حد له، كما يتطلب أن نجرح قلبنا، وأن نسقي كلماتنا بالدم، فهذا الدم وحده هو خمرة الإبداع، وفي بذلنا له لا بد من مجانية الشح، والاقتصاد، والحذر، والخوف. إن الكون، طبيعة ومجتمعنا، هو القيثارة، وعبثاً نبحث عن رنين الوتر في غيرها، أو عن النغم في غير إجادة العزف عليها. علينا، في كل ساعة، كل دقيقة، كل ثانية، أن نصعد بضمائرنا المتعبة من مجاهل القبور، حتى نكون في القيامة اليعازر كل يوم، ضامنين أن نصبح أقوى من الموت، وأبعد عن اليأس، ونكون في مقارعة الشدائد فولاذاً سقي بماء الخلود الذي في متناول يدنا، حين لا يكون الخلود همنا، بل الفولاذ الذي نسقيه، دون أن نسمح لأفعى جلجامش أن تسرقه كما فعلت بعشبة البقاء على حافة البئر التي أغفى عندها. ولن يتأتى هذا لمن يخاف الجوع، ويرهب الشقاء، ويحذر العاقبة، ويجانف المغامرة، فالوصول إلى عدن، لن يكون ميراثاً لمن يتهيبون الطريق، لأنه مكتوب أن الفداء هو السلم إلى السماء.

ولأن الإنسان لا يستطيع إلا أن يكون ذاته، ولأن إبداعه في ذاته المبدعة، فإن زهرة نارية ينبغي أن تتفتح كل يوم هناك، زهرة لا يلوي بها عاصف الريح، ولا تيبسها نفثة إبليس، ولا تهصرها قبضة غول يراودنا عن أنفسنا، بين السلامة والخطر، في كل خطوة إلى أمام، إن العافية النفسية، راحة الضمير، صدق الخلق، هو التربة التي تنبت وتنمو فيها شجرة القلب الحمراء، الشجرة التي تورق وتزهر بالمشاعر، وتثمر بالأفكار، والتي جذورها داخل الكاتب جذور دوحة، وعليها عصافير مغردة من كل جنس، ومن أوراقها الخضر، لا من الرقوق، صفحات كتابة، ومن نضرتها كورق الحور الفضي الباسم للشمس، تتضوأ الحروف، ومن نسغ الإرادة، في صحتها الكاملة، تتشرب الندى سقاية نهر يفيض الخير على ضفتيه، لكن شجرة القلب، لا تنخرها سوى دودة الإثم، هذا الحجر الأسود الذي يستحيل تفحم القلب إليه، ويبقى، تحت ثديا الأيسر، جذوة مرمدة، منطفئة لا جوهرة مشعة قولة ناظم حكمت، فحذار من هذه الدودة، وحذار من الإثم الذي هو أصلها، لأن القلم، هذه الماسة المتوهجة بين الأنامل، يغدو، عندئذٍ، حطبة جفت فيها المشاعر.

من المستحيل أن تموت، كورقة خضراء قطفت من غصنها، كلمة الفنان، إنها أبقى، لأن من تراكمها كنز الثقافة الذي تصير كل الكنوز، كل الثروات، إلى نقصان إلاه، فهو وحده، في الكون إلى زيادة دائمة. إن نداء الفنان لا يضيع أبداً، يبقى برغم عاديات الزمن، ورغم المنع والمصادرة، داوياً، وقد قتل بوشكين في مبارزة مدبرة من قبل القيصر، وانتحر المتنبي، في غارة مشبوهة، على يد فاتك الأسدي، لكن نداء هذين الشاعرين اخترق الزمن، وسيخترقه إلى أمد طويل، وحسب قول م. خرابتشنكو «الفنان الكبير يعكس المسارات الاجتماعية العميقة، في الوقت الذي يظل فيه ذاتاً ساطعة لا تتكرر، يظل هو نفسه (ترجمة شوكت يوسف)» وما هو موضوعي وشخصي في الإبداعات الفنية، لا يتجاوران، إنهما يندغمان دون انفصال، وهذا ليس خلطاً آلياً، بل هو مزج كيميائي، لذلك فإن عكس المسارات الاجتماعية، هو في الوقت نفسه، عكس السيرورات الذاتية للناس، وهذا المزيج الكيميائي الذي اسمه «المزجة البكر» يستميل حواس القراء في كل مكان، يستبد بها، يروضها، يطورها، أو يغيرها، وكما قال بول ايلوا «إن مهمتي أن أمنح الرؤية للناس» فإن على كل حامل قلم، وهذا دافعي دائماً، أن أجعل الآخرين يرون، أن نلفتهم إلى الأشياء من حولهم، إلى المساوىء، الشرور، وأن نعمدهم بالغبطة أيضاً وبالحماسة، وبالاندفاع في سبيل خير الآخرين، أن نجعلهم يلقون نظرة على الدنيا، ويفكرون، لا كيف يعيشون، بل كيف يصح أن يعيشوا، كما قال عمر فاخوري، وبالنسبة لي كروائي، لا أكتب لأسلي الناس، أو أجعلهم يقتلون الوقت، إنما لأجعلهم يحصلون على التجربة بسهولة، على المعرفة، وأيضاً على المتعة كي يخرجوا من كل رواية، وفي أذهانهم أسئلة، وأفكار، ومشاعر، وباعث على التفكير

فيما يصح أو لا يصح من أمور الحياة، وأدفعهم إلى النضال، بكل صروفه، ليغيروا، في كل لحظة، أو يراكموا، في كل لحظة، الأسباب التي تؤدي إلى التغيير نحو الأفضل. لذلك فإنني لا أكرر مواضيع رواياتي، وإن تكرر مهادها لأن التكرار يستنفد قابلية القراءة، ما دامت المطالعة هي في نشدان الجديد، في الجمال والصدق والاستمتاع والاغتناء بالفكر.

إن الصفة الملازمة لفن الكلمة هي معرفة التوجه الدائم والأكيد إلى القارىء والمستمع وحساب ما لديهم من استعداد لتقبل القيم الفنية، وصقل ما في النفوس التي نتوجه إليها بفننا، وقد كتب ف. كورولنكو يقول: «لم تعط الكلمة للإنسان من أجل إرضاء الذات، وإنما من أجل تجسيد وتقديم تلك الفكرة ذلك الشعور، ذلك الجزء من الحقيقة أو الإلهام الذي يمتلكه إلى الناس، وهذا مرتبط عضوياً بجوهر الكلمة ذاته، لدرجة أن الكلمة المغلقة التي لا يمكن إيصالها أو تقبلها تتعطل وتضمحل... إذ يجب على الفنان أن يشعر دوماً بالآخرين، وأن يلتفت (ليس في لحظة الإبداع ذاتها بل بعدها) ليعرف ما إذا كانت فكرته، شعوره، شخصيته، تستطيع أن تقف أمام القارىء، وتصبح فكرته هو، شخصيته هو وحده. يجب عليه، إذن، صقل كلمته بحيث تستطيع أن تقوم بهذا العمل (حالاً أو فيما بعد، هذه مسألة أخرى) عندئذٍ تنمو القدرات الفنية، تنتعش وتتعزز. أما إذا كانت مغلقة في حيز إرضاء الذات المنعزل، فإنها تأخذ بالاضمحلال، تفقد القدرة والحيوية، تهزل، أو تتوجه إلى أمزجة أحادية الجانب واستثنائية ذات صفة غريبة محضة».

لكم يحلو لي في الإقامة، في الترحال، في السفر الطويل أو القصير، أن أظل على تلك العلاقة الحارة مع القراء، وأن أفتح لهم قلبي، وأحس بخفق قلوبهم. إن سعادتي بأنني واحد منهم، رفيقهم صديقهم، كاتبهم، هو الثمن الكبير لليالي الطوال، وللتعب المضني، وألم المعاناة الذي يبهظني، ولكن مجرد تفكيري أنهم سيكونون سعداء، بهذه الصلة الحميمة معهم، يمدني بالقوة لكي أتابع، وسأتابع.

لقد أردت، صدقاً أن أقول، كيف حملت القلم، ولماذا، وباقتصاد في الكلمات، فإذا بي أثرثر طويلاً منساقاً بالرغبة في أن يظل الحديث بيني وبينكم دائراً...

شكراً لصبركم(*).

(*) من كتاب جديد بهذا العنوان يصدر قريباً عن «دار الآداب».

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور سهيل إدريس

في طبعة جديدة

□ **روايات:**

- **الحي اللاتيني**، الطبعة الثامنة.
- **الخندق الغميق**، الطبعة الرابعة.
- **أصابعنا التي تحترق**، الطبعة السادسة.

□ **قصص:**

- **أقاصيص أولى**، الطبعة الثالثة.
- **أقاصيص ثانية**، الطبعة الثالثة.

□ **آفاق «الآداب»:**

- **في معترك القومية والحرية**، الطبعة الثانية.
- **مواقف وقضايا أدبية**، الطبعة الثانية.

□ **مترجمات:**

- **الطاعون**، لألبير كامو.
- **الثلج يشتعل**، لريجيس دوبريه.
- **من أكون في اعتقادكم**، لروجيه غارودي.
- **حزن وجمال**، كاواباتا.